تُحفَةُ النُّبَلاءِ

بِتَهذِيبِ

الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ

ابْنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ

«ما أنزلَ اللّهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً»

حديث شريف

هذَّبه واعتنى به

أبو عبد الله؛ خلدون بن محمود بن نغوي آل حقوي

الدار الأثرية للخدمات الطباعية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تُحْفَةُ النُّبَلَاءِ

بِتَهْذِيبِ

الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ

للإمامِ ابن قيِّم الجوزية رحمه الله

«ما أنزلَ اللّهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً»

حديث صحيح

هذَّبه واعتنى به

أبو عبد الله؛ خلدون بن محمود بن نغوي آل حقوي

مقدمةُ التهذيب

هذا تهذيبٌ نافعٌ استعنتُ بالله على جمعه من كتاب "الداء والدواء" للإمام ابن القيم رحمه الله، والغايةُ منها الحصولُ على أهم وألطف الفوائد والقواعد والتنبيهات التي أفادها الإمام رحمه الله في هذا الكتاب، وقد حرصتُ على نقلها كفقرات بدون أي اختصار -قدر الإمكان- صيانة لصفاء هذه المادة العلمية الهامة، وقد وضعتُ عناوين لكل فقرة ضمن معترضتين [] لتمييزها عن المادة الأصل.

ثم قمتُ بتحقيق ما يلزم من المادة الحديثية -خارج الصحيحين- تتميمًا للمنفعة، وتنبيهًا على ما لم يصح حديثيًا. والله المستعان.

والكتابُ الأصلُ في جملته هو جواب عن استفتاء ورد على المؤلف رحمه الله في التخلص من المعاصي، وخصوصًا "العشق المحرم"[1]، وذكر رحمه الله في سياق علاج ذلك جملةً في التحذير من المعاصي، وذَكر كثيرا من عقوباتها القدرية

١ وقد ذكر الإمامُ رحمه الله ما نصُّه فيما بعدُ -في افتتاح الكلام عن علاج العشق-: "ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداءِ الذي طُلِبَ له الدواءُ".

والشرعية، ثم تكلّم عن علاجها -لاسيما مرض العشق هذا-، وذكر جملةً من مفاسده، وبعضَ القصص المتعلقة[١].

١ "مِن الجود بالعلم؛ أنَّ السائلَ إذا سألك عن مسألة: استقصيتَ له جوابها جوابا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة! كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: نعم، أو: لا. مقتصرا عليها!

ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في ذلك أمرا عجيبا: كان إذا سُئل عن مسألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة -إذا قدر-، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة؛ التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته؛ فيكون فرحُه بتلك المتعلقات واللوازم أعظمَ من فرحه بمسألته". مدارج السالكين (٢/ ٢٧٩).

- [سبب تصنيف الكتاب الأصل، وبيان أنه لكل داء دواء]

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ما تقول السادة العلماء؛ أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجل ابتلي ببلية وعَلِم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقدا وشدة! فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى.

فأجاب الشيخ الإمام العالم، شيخ الإسلام مفتي المسلمين، شمس الدين؛ أبو عبد الله؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب؛ إمامُ المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى[1].

الحمد لله.

أما بعدُ؛ فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»[2].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله: «لكل داء

---

١ توفي رحمه الله عام ٧٥١هـ.

٢ صحيح البخاري (٥٣٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

دواء؛ فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله»[١].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء؛ علمه من علمه وجهله من جهله»[٢]، وفي لفظ: «إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، أو دواء، إلا داء واحدًا، قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: الهرم». قال الترمذي: هذا حديث صحيح[٣].

وهذا يَعُمُّ أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها، وقد جعل النبي ﷺ الجهلَ داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: «خرجنا في سفر؛ فأصاب رجلا منا حجرٌ، فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء! فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على رسول الله أُخبر بذلك، فقال: قتلوه قتلهم الله ألا

---

١ صحيح مسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح. أحمد (٣٥٧٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله.

٣ صحيح. الترمذي (٢٠٣٨) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (١٦٥٠).

سألوا إذا لم يعلموا؟! فإنما شفاء العي السؤال[١]، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر - أو يعصب- على جرحه خرقة ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده»، فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و "من" هنا لبيان الجنس لا للتبعيض؛ فإن القرآن كلَّه شفاءٌ، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم يُنزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: «انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم، فأبوا

---

١ صحيح. أبو داود (٣٣٦) عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٤٣٦٢).
واما جملة (إنما كان يكفيه ...) فضعفها الشيخ الألباني رحمه الله كما في صحيح سنن أبي داود الأم (٢/ ١٥٩).

أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا بِرَاقٍ حتى تجعلوا لي جعلًا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي، وما به قلبة، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقي: لا نفعل حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال: قد أصبتم، اقتسموا واضربوا لي معكم سهما»[١].

فقد أثَّر هذا الدواء في هذا الداء، وأزاله حتى كأن لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبدُ التداويَ بالفاتحة لرأى لها تأثيرا عجيبا في الشفاء.

---

١ صحيح البخاري (٥١٢١).

ومكثتُ بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أجد طبيبا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرا عجيبًا، فكنت أصفُ ذلك لمن يشتكي ألمًا، وكان كثير منهم يبرأ سريعا.

- [السيف بضاربه، يجمع بين الذكر وقبول المحل، وعدم المانع، وقوة القلب]

ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يُستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي:

١- قَبول المحل [وعدم المانع]،

٢- وقوة همة الفاعل وتأثيره.

فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء؛ فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثرُه عنه، إما لضعفه في نفسه -بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان-، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت

الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا؛ فإن السهم يخرج منه خروجا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو، وغلبتها عليها.

كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه»[١]، فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها.

كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا

١ صحيح. الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة مرفوعا. الصحيحة (٥٩٤).

رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»[١].

١ صحيح مسلم (١٠١٥).

[الدعاء من أنفع الأدوية]

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن....

وله مع البلاء ثلاثة مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه -وإن كان ضعيفا-.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»[١].

وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل؛ فعليكم عباد الله بالدعاء»[٢].

---

١ حسن. الحاكم (١٨٣٠). صحيح الجامع (٧٧٣٩). يعتلجان: يتدافعان.

٢ حسن. الحاكم (١٨١٥) عن ابن عمر مرفوعا. صحيح الجامع (٣٤٠٩).

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبي ﷺ «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[١].

١ رواه أحمد (٢٢٣٨٦) عن ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا، وجملة (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) لم تصح، ينظر: الصحيحة (١٥٤).

[فصل الإلحاح في الدعاء]

ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[١].

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ: «لا تعجزوا في الدعاء؛ فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد»[٢].

وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»[٣].

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مورق: ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجل في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب لعل الله عز وجل أن ينجيه[٤].

---

١ صحيح. الترمذي (٣٣٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. الصحيحة (٢٦٥٤).

٢ ضعيف جدا. الحاكم (١٨١٨). الضعيفة (٨٤٣).

٣ باطل. الضعفاء للعقيلي (٤/ ٤٥٢). الضعيفة (٦٣٧).

٤ مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٨٨٠).

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء! وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله!

وفي البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي»[١].

وفي صحيح مسلم عنه: «لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»[٢].

---

١ صحيح البخاري (٥٩٨١).

٢ صحيح مسلم (٢٧٣٥).

فيستحسر: المراد -هنا- أنه ينقطع عن الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، أي لا ينقطعون عنها.

- [أسباب الإجابة وآدابها]

وإذا جُمع مع الدعاء:

١- حضورُ القلب وجمعيته بكليته على المطلوب،

٢- وصادف وقتا من أوقات الإجابة الستة، وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر.

٣- وصادف خشوعا في القلب، وانكسارا بين يدي الرب، وذلا له، وتضرعًا، ورقة.

٤- واستقبل الداعي القبلةَ.

٥- وكان على طهارة.

٦- ورفع يديه إلى الله.

٧- وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده.

٨- وقدَّم بين يدي دعائه صدقةً؛

فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرَدُّ أبدًا، ولا سيما

٩- إن صادف الأدعيةَ التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

- [جواب شبهة متعلقة بالظرف لا باللفظ أو المكان كقبر!]

وكثيرا ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرا لحسنته، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك، فأجيبت دعوته؛ فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجردا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي!

وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به؛ فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب! فكان غالطًا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.

ومن هذا؛ قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب، فيظن الجاهل أن السر للقبر! ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله؛ كان أفضل وأحب إلى الله.

- [السلاح بضاربه]

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح -والسلاح بضاربه- لا بحده فقط! فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود؛ حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة؛ لم يحصل الأثر.

- [جواب شبهة في العلاقة بين الدعاء والقدر]

وهاهنا سؤال مشهور وهو:

أن المدعو به إن كان قد قُدِّر لم يكن بد من وقوعه -دعا به العبد أو لم يدع-! وإن لم يكن قد قُدر لم يقع! سواء سأله العبد أو لم يسأله.

١- فظنت طائفة صحة هذا السؤال؛ فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه! وهؤلاء - مع فرط جهلهم وضلالهم- متناقضون، فإن طرْد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلابد من وقوعهما - أكلت أو لم تأكل-! وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل!

وإن كان الولد قدر لك فلابد منه -وطئت الزوجةَ أو الأمة أو لم تطأ-! وإن لم يقدر لم يكن؛ فلا حاجة إلى التزويج والتسري، وهلم جرا!

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟! بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

وتكايس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب اللهُ عليه الداعي من غير أن يكون له تأثيرٌ في المطلوب بوجه ما! ولا فرق عند هذا

"المتكيس" بين الدعاء والإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق!

٢- وقالت طائفة أخرى -أكيس من هؤلاء-: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت! وهذا كما إذا رأيتَ غيما أسود باردا في زمن الشتاء؛ فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لا أنها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل ليس شيء من ذلك سببا البتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران العادي لا التأثير السببي، وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

٣- والصواب أن هاهنا قسما ثالثا غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور قُدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يُقدر مجردا عن سببه، ولكن قُدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما

قدر الشبع والري بالأكل والشرب وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهذا الذي حُرِمَهُ السائلُ ولم يوفق له.

وحينئذ؛ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء! كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال.

وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم -أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه- كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم.

وكان عمر رضي الله عنه يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنديه، وكان يقول لأصحابه: لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء، وكان يقول: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء، فإن الإجابة معه.....

فمن أُلْهِمَ الدعاءَ فقد أُرِيدَ به الإجابة، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[١].

وهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه.....

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم -على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها- على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلْقِه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله، واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

---

١ صحيح. الترمذي (٣٣٧٣) عن أبي هريرة مرفوعا. الصحيحة (٢٦٥٤).

- [شبهة في استعمال الاستغفار]

كثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: أستغفر الله؛ زال أثرُ الذنب وراح هذا بهذا! وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول: سبحان الله وبحمده -مائة مرة- وقد غُفر ذلك أجمعه! كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة؛ حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»[١]، وقال لي آخر -من أهل مكة-: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل؛ اغتسل وطاف بالبيت أسبوعا وقد محي عنه ذلك! وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أذنب عبد ذنبًا، فقال: أي رب أصبت ذنبا فاغفر لي؛ فغفر الله ذنبه، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا آخر، فقال: أي رب أصبت ذنبًا، فاغفر لي؛ فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، فليصنع ما شاء»[٢]. وقال: أنا لا أشك أن لي ربا يغفر الذنب ويأخذ به!

وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة

---

١ صحيح مسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح (٧٥٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم: وكثِّرْ ما استطعت من الخطايا... إذا كان القدوم على كريم!

وقول الآخر: التنزهُ من الذنوب جهلٌ بسعة عفو الله!

وقال الآخر: تركُ الذنوب جراءةٌ على مغفرة الله واستصغار!!

- [الاغترار بالله]

ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطر إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء، ولو أن فقيرا مسكينا مضطرا إلى شربة ماء عند مَن في داره شط يجري: لما منعه منها! فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئا!

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته!

وهذا من أقبح الجهل، وأَبْيَنِ الكذب عليه؛ فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل، والله تعالى يرضيه تعذيبُ الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر، فحاشا رسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإن الشرك داخل في هذه الآية، فإنه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي

ذنب كان، ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها.

وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أُتيَ صاحبُه من قلة علمه وفهمه، فإنه سبحانه هاهنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كرمه! وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجتَه! وهذا جهل قبيح، وإنما غره بربه الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء، وجهله وهواه، وأتى سبحانه بلفظ الكريم -وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه-؛ فوضع هذا المغترُ الغرورَ في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥-١٦]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا

المغتر أن قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم؛ فهو سبحانه لم يقل: لا يدخلها بل قال ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] ولا يلزم من عدمِ صليها عدمُ دخولها! فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها؛ لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونا له أن يجنبها.

وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]!!

ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة! ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيرا قط!

وكاغترار بعضهم بصوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر، ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان، والصلوات الخمس أعظمُ وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبتِ الكبائرُ.

فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويا على تكفير الصغائر إلا مع

انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر.... فعُلم أن جعل الشيء سببا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

- [الاغترار بحسن الظن بالله]

وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيا عن ربه " «أنا عند حسن ظن عبدي بي؛ فليظن بي ما شاء»[١] يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن أحسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته.

وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات؛ فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظن أبدا، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنا بربه أطوعهم له.

كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حالٌّ مرتحلٌ في مساخطه وما

---

١ صحيح. رواه أحمد في مسنده (١٦٠١٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعا. السلسلة الصحيحة (١٦٦٣).

يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟!

وكيف يُحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ وظن -بجهله- أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟ وكيف يحسن الظن بربه من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب؟!

وقد قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات -وهو السر من القول-: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣][1]، فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرا مما يعملون؛ كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله، ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غرورا وخداعا من نفسه، وتسويلا من الشيطان، لا إحسان ظن بربه! ....

---

١ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت «لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، قالت: فشغلني وجعُ رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: ما فعلتِ؟ أكنتِ فرَّقت الستةَ الدنانير؟ فقلت: لا والله لقد شغلني وجعك، قالت فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟ وفي لفظ: ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده»[١].

فيا لله؛ ما ظنُّ أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: حسَّنَا ظنوننا بك؛ أنك لن تعذب ظالما ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه!

فسبحان الله؛ ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧] أي ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه،

---

١ صحيح. أحمد (٢٤٧٣٣) من حديث أبي أمامة بن سهل رضي الله عنه. الصحيحة (١٠١٤).

فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في حديث الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»[١].

وبالجملة؛ فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك؛ فلا يتأتى إحسان الظن....

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهلَ الرجاء، لا البطالين والفاسقين!

---

١ ضعيف. أحمد (١٧١٢٣) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعًا. ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

- [أمثلة على خطورة الاتكال على حسن الظن]

قال بعض العلماء: من قطع عضوا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم؛ لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي.

وكان يقول: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي! وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تدرك أمْنًا خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار، فيقولون: يا فلان: ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا

آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[١].

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: «مر رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: أف لك فظننت أنه يريدني، قال: لا، ولكن هذا قبر فلان، بعثته ساعيا إلى آل فلان، فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار»[٢].

وفي مسنده أيضًا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء، قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا؛ كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»[٣].

وفيه أيضًا من حديثه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[٤].

وفيه أيضًا عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب والأبصار؛ ثبت

---

١ صحيح البخاري (٣٠٩٤) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح النسائي (٨٣١).

٣ صحيح. أحمد (١٢٢١١). الصحيحة (٢٩١).

٤ صحيح. أحمد (١٣٣٤٠). الصحيحة (٥٣٣).

قلبي على دينك، فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء»[١].

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «ما لي لم أر ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك منذ خلقت النار»[٢].

وفي صحيح مسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»[٣]....

وفي المسند أيضًا عنه، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعا، حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، فاستقبلته بين يديه لأنظر

---

١ صحيح. أحمد (١٢١٠٧)، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله.

٢ صحيح. أحمد (١٣٣٦٧). الصحيحة (٢٥١١).

٣ صحيح مسلم (٢٨٠٧).

ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، فقال: أي إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدوا»[١].

وفي المسند من حديث بريدة قال: «خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات: يا أيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم، فأبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أُتيتم، أيها الناس أُتيتم، ثلاث مرات»[٢].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر حرام، وإن على الله عز وجل عهدا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال؟ قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار»[٣].

وفي المسند أيضًا من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أرى ما لا ترون

---

١ حسن. أحمد (١٨٦٠١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. صحيح الجامع (٢٦٥٩).

٢ صحيح. أحمد (٢٢٩٤٨) من حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله.

٣ صحيح مسلم (٢٠٠٢).

وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد، لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل»[١]، قال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد[٢]، .....

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقَّرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلًا، «كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»[٣].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يضرب الجسر على جهنم، فأكون أول من يجوز، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموثق بعمله، ومنهم

---

١ صحيح. الترمذي عن أبي ذر مرفوعا. الصحيحة (١٧٢٢).

٢ تتمة الحديث من كلام أبي ذر رضي الله عنه موقوفًا، ينظر: الصحيحة (٤/ ٣٠٠).

٣ صحيح. أحمد (٣٨١٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٣١٠٢).

المجردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله؛ أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل»[١].

وفي صحيح مسلم عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد، فأُتي به فعرَّفه نعمَه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى قُتلتُ، قال: كذبتَ، ولكنْ قاتلتَ ليقال: هو جريء! فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمَه وقرأ القرآن فأُتي به فعرَّفه نعمَه فعرفها فقال: ما عملتَ فيها؟ قال تعلمتُ فيك العلمَ وعلَّمْتُه، وقرأتُ فيك القرآن، فقال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ ليقال: هو عالم! فقد قيل. وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» وفي لفظ «فهؤلاء أول خلْقِ الله تُسَعَّرُ بهم النارُ يوم القيامة»[٢].

---

١ صحيح البخاري (٧٠٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح. الترمذي (٢٣٨٢) عن أبي هريرة مرفوعا. صحيح الجامع (١٧١٣).

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء؛ فشرُّ الناس مَن تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء، والشهداء، والصديقون، والمخلصون، وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أخذ شبرا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[٢].

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرِّها»[٣]....

---

١ صحيح مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح البخاري (٢٣٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا.

٣ صحيح البخاري (٣٢٦٥) عن أبي هريرة مرفوعا.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به؛ فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم! وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر! وقد دخلت المرأةُ النارَ في هرة! واشتعلت الشملةُ نارا على مَن غلَّها وقد قُتل شهيدا!

- [الاغترار بكثرة النعم رغم المعاصي]

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك! فهذا من الغرور.

عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله عز وجل يعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]»[١].

وقال بعض السلف: إذا رأيتَ الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره؛ فإنما هو استدراج منه يستدرجك به، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ

١ صحيح. أحمد (١٧٣١١) عن عقبة بن عامر مرفوعا. الصحيحة (٤١٣).

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]١.

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته! وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته! بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه -ﷺ-: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»٢.

وقال بعض السلف: رب مستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم! ورب مغرور بسِتر الله عليه وهو لا يعلم! ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم!

---

١ "قال ابن عباس رضي الله عنه: لولا أن يُجعل الناسُ كلهم كفارا؛ لجعلتُ لبيوت الكفار {سقفا من فضة ومعارج} من فضة، وهي درج، وسرر فضة". البخاري (٤/ ١٨٢٠).

٢ صحيح. أحمد (٣٦٧٢) عن ابن مسعود مرفوعا. الصحيحة (٢٧١٤).

- [فصل الاغترار بالدنيا لأنها عاجلة]

وأعظم الخلق غرورا من اغتر بالدنيا وعاجلها؛ فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقدٌ، والآخرة نسيئة، والنقد أحسن من النسيئة! ...

وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة!

جوابه: أنه إذا تساوى النقد والنسيئة؛ فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل؛ فهي خير، فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنَفَس واحد من أنفاس الآخرة؟!

كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع؟»[1].

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة؛ من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة، فأيما

١ صحيح مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد رضي الله عنه مرفوعًا.

أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له [يعني لا يمكن تقييمه لعظمته، كما يقال: بغير حساب] ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده؟

- [كيف يجتمع اليقين بالمعاد مع التخلف عن العمل؟ وما هو سبب الجرأة على المعاصي؟]

فإن قلتَ: كيف يجتمع التصديق الجازم -الذي لا شك فيه- بالمعاد والجنة والنار؛ ويتخلف العمل؟! وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة؛ ويبيتُ ساهيا غافلا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته؟!

قيل: هذا -لعمر الله- سؤال صحيح، وارد على أكثر هذا الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء وهذا التخلف له عدة أسباب:

١- أحدها: ضعف العلم، ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت؛ فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربَّه أن يريه إحياء الموتى عيانا -بعد علمه بقدرة الرب على ذلك- ليزداد طمأنينة، ويصير المعلوم -غيبا- شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الخبر كالمعاينة»[١].

---

١ صحيح. أحمد (٢٤٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، صحيح الجامع (٥٣٧٤).

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك

٢- [ضعف الصبر] تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

- [الرجاء النافع إنما يكون مع الأسباب]

وسر المسألة: أن الرجاءَ وحسنَ الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعارضها ويبطل أثرها.

ومما ينبغي أن من رجا شيئا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك؛ فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف

أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[١].

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة؛ فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر، ويزنون، ويسرقون؟ فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون؛ ويخافون أن لا يتقبل منهم! {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}»[٢]. وقد روي من حديث أبي هريرة أيضا.

---

١ صحيح. الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. صحيح الجامع (٦٢٢٢).

٢ صحيح. الترمذي (٣١٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا. الصحيحة (١٦٢).

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

- [نماذج من خوف الصحابة من الله مع ما هم عليه من عظيم الفضل وكثير العمل]

من تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير -بل التفريط- والأمن!

فهذا الصديق رضي الله عنه يقول: وددتُ أني شعرة في جنب عبد مؤمن، ذكره أحمد عنه.

وذَكر عنه أيضًا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرا، ويقول: ابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا.

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأُتي بطائر فقلَّبه ثم قال: ما صِيد مَن صيد، ولا قُطعت شجرة من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر؛ قال لعائشة: يا بنية، إني أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد؛ فأسرعي به إلى ابن الخطاب.

وقال: والله لوددتُ أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾

[الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه -وهو في الموت-: ويحك! ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي، إن لم يغفر لي (ثلاثا)، ثم قضى.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه؛ فيبقى في البيت أياما يُعاد، يحسبونه مريضا!

وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصارَ، وفتح بك الفتوح، وفعلتَ، فقال: وددتُ أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر: يبكي حتى تبتل لحيته.

وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي؛ لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، أَلَا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة

بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء؛ قد علمتَ؛ فكيف عملتَ فيما علمتَ؟

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة، ولا شربتم شرابا على شهوة، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل.

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق، وعُرِضَتْ عليه النفقةُ، فقال: عندنا عنزٌ نحلبها، وحُمُرٌ ننقل عليها، ومحرَّر يخدمنا، وفضل عباءة؛ وإني أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الداري ليلةً سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي

وحسوا مرقي.

وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

وقال إبراهيم التيمي: ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون مكذبا.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

ويُذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أَمِنَه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أَنشدك اللهَ؛ هل سماني لك رسول الله ﷺ -يعني في المنافقين-، فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدا.

فسمعتُ شيخنا رضي الله عنه يقول: ليس مرادُه لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب، فكل من سألني: هل سماني لك رسول الله ﷺ؛ فأزكيه!

قلت: وقريب من هذا «قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين

ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: سبقك بها عكاشة»[١]، ولم يُرِدْ أن عكاشة وحده أحقُّ بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم؛ فكان الإمساك أولى، والله أعلم.

١ صحيح البخاري (٥٧٠٥).

- [خطر الذنوب على الفرد والعالم]

مما ينبغي أن يعلم؛ أن الذنوب والمعاصي تضر ولا بد، فضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة -دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور- إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه؛ فجعل صورته أقبحَ صورة وأشنعها، وباطنَه أقبحَ من صورته وأشنع، وبُدِّل بالقرب بُعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان؛ فهان على الله غايةَ الهوان، وسقط من عينه غايةَ السقوط، وحلَّ عليه غضبُ الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قوَّادا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة! فعياذا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال؟

وما الذي سلط الريحَ العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرَّ عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم؛ حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحةَ حتى قطَّعت قلوبَهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعتِ الملائكة نبيحَ كلابهم، ثم قلَبَها عليهم؛ فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل؛ فلما صار فوق رءوسهم أمطر عليهم نارا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نُقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوما أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا ما علوا تتبيرا؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخرُ ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: لما فُتحت قبرص فُرِّقَ بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيتُ أبا الدرداء جالسا وحده يبكي، فقلتُ: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلامَ وأهله، فقال: ويحك يا جبير، ما أهونَ الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمرَه، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك؛ تركوا

أمر الله فصاروا إلى ما ترى[١]!

وقال علي بن الجعد: أنبأنا شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا البَخْتَري يقول: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «لن يهلك الناس حتى يُعْذِروا من أنفسهم»[٢].

وفي مسند أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرتِ المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب من عنده، فقلت: يا رسول الله، أمَا فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: بلى، قلت: كيف يُصنع بأولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»[٣].

وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها، وما لم يزك صلحاؤها فجارها، وما لم يهن خيارها أشرارها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر».

---

١ الزهد لأحمد بن حنبل (ص١١٧).

٢ صحيح. أحمد (١٨٢٨٩)، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله.

٣ أحمد (٢٦٥٩٦).

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[١].

وفيه أيضًا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قلنا: يا رسول الله! أمِن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قالوا وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهة الموت»[٢].

وفي المسند من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[٣].

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر

---

١ رواه أحمد (٢٢٣٨٦) عن ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا، وجملة (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) لم تصح، ينظر: الصحيحة (١٥٤).

٢ صحيح. أبو داود (٤٢٩٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٩٥٨).

٣ صحيح. أحمد (١٣٣٤٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٥٢١٣).

الزمان قوم يختِلون الدنيا بالدين١، ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترون؟ وعلي يجترئون؟ فبي حلفت؛ لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران»٢.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال علي: يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذ عامرة -وهي خراب من الهدى-! علماؤهم شر من تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود.

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها.

وفي مراسيل الحسن: إذا أظهر الناس العلم، وضيعوا العمل، وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا بالأرحام؛ لعنهم الله عز وجل عند ذلك؛ فأصمهم وأعمى أبصارهم.

---

١ أي: يطلبون الدنيا بعمل الآخرة. النهاية (٢/ ٩).

٢ ضعيف الترمذي (٢٥٢٨).

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم»[١].

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من كان قبلكم؛ كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس! فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم

١ حسن. ابن ماجه (٤٠١٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (١٠٦).

ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[١].

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم، وستين ألفا من شرارهم، قال: يا رب، هؤلاء الأشرار؛ فما بال الأخيار؟ قال: لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال: بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية، أن دمراها بمن فيها، فوجدا رجلا قائما يصلي في مسجد، فقالا: يا رب، إن فيها عبدك فلانا يصلي، فقال الله عز وجل: دمراها ودمراه معهم؛ فإنه ما تمعر وجهُه فيَّ قطُّ.

وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينة: قال: حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر: «أن

---

١ ضعيف. أبو داود (٤٣٣٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا. الضعيفة (١١٠٥).

ملَكا أُمر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، إن فيها فلانا العابد، فأوحى الله إليه: أن به فابدأ؛ فإنه لم يتمعر وجهُه فيَّ ساعةً قطُّ»! ....

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: أما بعد؛ فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد، وقد كتبتُ إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق به؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقولوا كما قال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضنَّ الناسُ بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل

الله بهم بلاء لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم» رواه أبو داود بإسناد حسن[١].

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال: لقد رأينا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم.....

ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بختنصر؛ فقال: بما كسبتْ أيدينا سلطتَ علينا مَن لا يعرفك ولا يرحمنا.

وقال بختنصر لدانيال: ما الذي سلطني على قومك؟ قال: عِظم خطيئتك وظُلم قومي أنفسهم....

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأتُ في الحكمة: يقول الله عز وجل: أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك! ولكنْ توبوا إليَّ أَعْطِفُهم عليكم.

وفي مراسيل الحسن: إذا أراد الله بقوم خيرا جعل أمرهم إلى حلمائهم، وفيأهم عند سمحائهم، وإذا أراد الله بقوم شرا جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيأهم عند

---

١ صحيح. أبو داود (٣٤٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٤٢٣).

بخلائهم.

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال: قال موسى: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض؛ فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملتُ عليكم خياركم فهو من علامة رضائي عنكم، وإذا استعملتُ عليكم شراركم فهو من علامة سخطي عليكم ....

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق: يا أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها! ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه -وفي لفظ: إذا رأوا المنكر فلم يغيروه- أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[١].

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خفيتِ الخطيئة لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تغير؛ ضرَّتِ

١ صحيح. أبو داود (٤٣٣٨) عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعا. الصحيحة (٣٣٥٣).

العامة»[١]،....

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبي ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي -وهم أعزُّ وأكثرُ ممن يعمله-؛ فلم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب»[٢].

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[٣].

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: كان حبرٌ من أحبار بني إسرائيل يغشى منزلَه الرجالُ والنساءُ، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله، فرأى بعضَ بنيه يوما يغمز النساء، فقال: مهلا يا بني! مهلا يا بني! فسقط من سريره فانقطع نخاعه، وأسقطتِ امرأتُه، وقُتل بنوه، فأوحى الله إلى نبيهم: أنْ أخبر فلانا الخبرَ: أني لا أُخرج من

---

١ موضوع. ابن أبي الدنيا في العقوبات (٦٤ / ١). الضعيفة (١٦١٢).

٢ صحيح. أبو داود (٤٣٣٨) عن جرير رضي الله عنه مرفوعا. الصحيحة (٣٣٥٣).

٣ البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

صلبك صديقا أبدا! ما كان غضبك لي إلا أن قلتَ: مهلا يا بني!!

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا، كمثل القوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»[١].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: «إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[٢].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عُذبتِ امرأةٌ في هرة سجنتها حتى ماتت؛ فدخلت النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»[٣]!

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له: في يوم واحد تركت بنو إسرائيل

---

١ صحيح. أحمد (٣٨١٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٣١٠٢).

٢ صحيح البخاري (٦١٢٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

٣ صحيح البخاري (٣٣١٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا.

دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه.

ومن هاهنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت....

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيتَ[1].

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

---

١ الزهد (٢٢٦٨٧) للإمام أحمد.

- [فائدة عظيمة جدا في لحوق أثر الذنب بالعبد ولو بعد حين]

وهاهنا نكتة دقيقة يَغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيرُه فيُنسى، ويظن العبد أنه لا يُغَبِّرُ[١] بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغبر حائط في وقوعه... فليس له بعدَ الوقوع غبار

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت غبارٌ نعمةً؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أكثر المغترين بها -العلماء والفضلاء فضلا عن الجهال-، ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعُدُّوا أنفسكم من الموتى، واعلموا أن قليلا يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى....

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبتُ من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت

---

١ "لا يغبّر": لا يثير الغبار، يعني لا يرى أثر الذنب بعد ذلك.

بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله فيُشمت به في القيامة كلَّ عدو.

وقال ذو النون: مَن خان الله في السر هتك اللهُ سِتره في العلانية.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خُلُق دابتي وامرأتي.

- [جملة عظيمة من آثار المعاصي، وبعضها متفرع عن بعض]

١- فمنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه وكمال فهمه، فقال: إني أرى اللهَ قد ألقى على قلبك نورا؛ فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم فضل... وفضل الله لا يؤتاه عاصي

٢- ومنها: حرمان الرزق، وفي المسند: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقد تقدم[١]، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق؛ فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استُجلب رزقُ الله بمثل ترك المعاصي.

٣- ومنها: وحشةٌ يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة

---

١ رواه أحمد (٢٢٣٨٦) عن ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا، وجملة (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) لم تصح، ينظر: الصحيحة (١٥٤).

أصلا، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام! فلو لم تترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة؛ لكان العاقل حريا بتركها.

٤- ومنها: الوحشةُ التي تحصل له بينه وبين الناس -ولاسيما أهل الخير منهم-؛ فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بَعُدَ منهم ومن مجالستهم، وحُرِمَ بركةَ الانتفاع بهم، وقَرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بَعُدَ من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم؛ فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشا من نفسه....

ذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: أتدري مم هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقي الله بغضَه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبتُه منذ أربعين سنة.

٥- ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه...

٦- ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم .... وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد....

٧- ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية، وأما وهنها للبدن؛ فإن المؤمن قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه -وإن كان قوي البدن- فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه، فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهلُ الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

٨- ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يَصد عن طاعة تكون بدله، ويَقطع طريقَ طاعة أخرى فينقطع عليه بالذنب طريقٌ ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

٩- ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد؛ فإن البر كما يزيد في

العمر؛ فالفجور يقصر العمر.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع، وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسبابا تكثره وتزيده.... وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتا غير حي، كما قال تعالى، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول: ﴿يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]....

وسر المسألة أن عمرَ الإنسان مدةُ حياته، ولا حياةَ له إلا بإقباله على ربه والتنعمِ بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

١٠- ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، وتولد بعضها بعضا، حتى يعز على العبد

مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها، وإن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها، قالت الثالثة كذلك وهلم جرا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات.

وكذلك كانت السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة، وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء، حتى يعاودها، فتسكن نفسه، وتقر عينه.

ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة؛ لضاقت عليه نفسه وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها إلا بما يجد من الألم بمفارقتها!...

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها؛ حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها.

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها؛ حتى يرسل الله إليه الشياطين فتؤزه إليها

أزا.

فالأول قوَّى جندَ الطاعة بالمدد؛ فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوَّى جند المعصية بالمدد؛ فكانوا أعوانا عليه.

١١- ومنها: وهو من أخوفها على العبد؛ أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوي إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصر عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه! وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

١٢- ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحُها فتصير له عادة! فلا يستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدُهم بالمعصية، ويحدث بها مَن لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملتُ كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يعافون، وتسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت يوم كذا وكذا

كذا وكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه»[١].

١٣- ومنها: أن كل معصية من المعاصي؛ فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل.

فاللوطية: ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود.

١٤- ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه.

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وإنْ عَظَّمَهم الناسُ في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفا من شرهم؛ فهم في قلوبهم أحقرُ شيء وأهونه.

١٥- ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك؛ فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

---

١ صحيح البخاري (٥٧٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار"[١]!

١٦- ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه؛ فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إن الحبارى[٢] لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَّنَةُ وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

فلا يكفيه عقاب ذنبه؛ حتى يلعنه من لا ذنب له!

١٧- ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد؛ فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى،

---

١ صحيح البخاري (٥٩٤٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

٢ الحُبَارى: طائر أكبر من الدجاج الأهلي، وأطول عنقًا، يضرب به المثل في البلاهة، فيقال: أبله من الحبارى.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي فليطلبها بطاعة الله؛ فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.

قال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين؛ إن ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه[١].

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميت القلوب... وقد يورث الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوب حياةُ القلوب... وخيرٌ لنفسك عصيانُها

وهل أفسد الدينَ إلا الملوك... وأحبارُ سوء ورهبانها

١٨- ومنها: أن المعاصي تفسد العقل؛ فإن للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص[٢].

---

١ بهجة المجالس (ص٨٦) لابن عبد البَر.

٢ قال شيخ الإسلام رحمه الله: "من المعلوم أنَّ أهلَ الحديث يشاركون كلَّ طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أنْ يَذكر فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى؛ مثل المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك؛ وكلُّ هذه الطرق لأهل الحديث صَفوتُها

وقال بعض السلف: ما عصى اللهَ أحدٌ حتى يغيب عقله! وهذا ظاهر، فإنه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره على بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعافُ ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يُقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!

١٩- ومنها: أن الذنوبَ إذا تكاثرت طُبع على قلب صاحبها؛ فكان من الغافلين.

وخلاصتها، فهم أكمل الناس عقلا؛ وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالًا، وأقومهم جدلًا، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا، وأحدُّهم بصرا ومكاشفة، وأصوبهم سمعا ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدا وذوقًا، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم؛ ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل.

فكل مَنِ استقرأ أحوالَ العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلًا، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعافَ ما يناله غيرُهم في قرون وأجيال، وكذلك أهلُ السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين، وذلك لأنَّ اعتقادَ الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: ١٧]، وقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٦ - ٦٨]". مجموع الفتاوى (٤/ ٩).

كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب؛ حتى يعمي القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انعكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

٢٠- ومنها: أن الذنوب تُدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ؛ فإنه لعن على معاصي -والتي غيرها أكبر منها-؛ فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة.

فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة.

ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده.

ولعن المحلِّل والمحلَّل له.

ولعن السارق.

ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه.

ولعن من غيَّر منار الأرض -وهي أعلامها وحدودها-.

ولعن من لعن والديه.

ولعن من اتخذ شيئا فيه الرُّوح غرضا يرميه بسهم.

ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء.

ولعن من ذبح لغير الله.

ولعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا.

ولعن المصورين.

ولعن من عمِل عمَل قومِ لوط.

ولعن من سب أباه وأمه.

ولعن من كمه أعمى عن الطريق.

ولعن من أتى بهيمة.

ولعن من وسم دابة في وجهها.

ولعن من ضار مسلما أو مكر به.

ولعن زوَّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج.

ولعن من أفسد امرأة على زوجها، أو مملوكا على سيده.

ولعن من أتى امرأة في دبرها.

وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح.

ولعن من انتسب إلى غير أبيه.

وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة؛ فإن الملائكة تلعنه.

ولعن من سب الصحابة.

وقد لعن الله من أفسد في الأرض وقطع رحمه، وآذاه وآذى رسوله ﷺ.

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى.

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافر أهدى من سبيل المسلم.

ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل.

ولعن الراشي والمرتشي والرائش -وهو: الواسطة في الرشوة-.

ولعن على أشياء أخرى غير هذه، فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

٢١- ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة؛ فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يَطمع غيرُ هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذ لم يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

٢٢- [جملة مما جاء في العقوبات الأخروية على بعض المعاصي]

ومن عقوبات المعاصي ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن

جندب [1] [في جملة ما رآه النَّبِيّ ﷺ من أهل النار]:

"أما الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يُثلغ رأسهُ بالحجر؛ فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة!

وأما الرجل الذي أتيتَ عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه؛ فإنه الرجل يغدو إلى بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور؛ فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيتَ عليه يسبح في النهر ويُلقم الحجارة؛ فإنه آكل الربا"....

٢٣- ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء، والزرع، والثمار، والمساكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال مجاهد: إذا وَلِيَ الظالمُ سعى بالظلم والفساد، فيحبس اللهُ بذلك القطر؛ فيهلَك الحرثُ والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

---

١ صحيح البخاري (٦٦٤٠) من حديث سمرة رضي الله عنه مرفوعًا.

وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ثم قال: أما والله ما هو بَحْرُكُم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر....

٢٤- ومن تأثير معاصي الله في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مرَّ رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح؛ لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات.

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: وُجِدتْ في خزائن بني أمية حنطة؛ الحبة بقدر نواة التمرة! وهي في صرة مكتوب عليها: كان هذا ينبت في زمن من العدل. وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب.

وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعه عنه ﷺ أنه

قال: «خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا، ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[١]، فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة؛ يخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطا كما ملئت جورًا، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارى، ويقيمُ الدين الذي بَعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركاتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها[٢]، ويكون العنقود من العنب وقر[٣] بعير، ولبن اللِّقحة الواحدة[٤] لتكفي الفئام من الناس، وهذه لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر ...

٢٥- ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «الحياء خير كله»[٥].

---

١ صحيح البخاري (٣١٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ يعني قشرها، تشبيهًا بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ.

٣ الوِقر: الحِمل.

٤ وهي الناقة القريبة العهد بالنّتاج.

٥ صحيح مسلم (٣٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا.

وقال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»

وفيه تفسيران:

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد، والمعنى: من لم يستح؛ فإنه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياءُ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح؛ فإنه يواقعها، وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحى منه من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ.

فعلى الأول: يكون تهديدًا، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وعلى الثاني: يكون إذنا وإباحة.

ومن استحى من الله عند معصيته؛ استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته؛ لم يستح الله من عقوبته.

٢٦- ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد -شاء أم أبى-، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي! وهذا من

مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيمَ حرماته، وتعظيمُ حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابتَه من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخِفُّون به كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدْر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدْر خوفه من الله يخافه الخلْقُ، وعلى قدْر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله؛ ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهوِّنُه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟! ....

٢٧- ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده، وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أي أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترى العاصي مهملا لمصالح نفسه مضيعا لها، قد أغفل اللهُ قلبَه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما هي سحابة صيف، أو خيال طيف .....

٢٨- [العاصي يفوته رفقة المؤمنين وثوابهم]

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم -فإن الله يدافع عن الذين آمنوا- فاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومنها: استغفار حملة العرش لهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يَذل من والاه الله، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها: العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته وإعطاؤهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]....

٢٩- ومن عقوبتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه، والله المستعان.

فالذنب إما يميت القلب، أو يمرضه مرضا مخوفًا، أو يضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي: « الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال» وكل اثنين منها

قرينان.

فالهم والحزن قرينان: فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان: فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته؛ فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته؛ فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان: فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان: فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال....

٣٠- ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم، وتُحِلُّ النِّقَم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حَلَّتْ به نِقمة إلا بذنب.

كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غَيَّر غُيِّر عليه؛ جزاء وفاقًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فإن غَيَّرَ المعصيةَ بالطاعة غيَّرَ الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].....

وقد أحسن القائل:

إذا كنتَ في نعمة فارعها... فإن الذنوب تزيل النعم

وحُطْها بطاعة رب العبا... د فرب العباد سريع النقم

وإياك والظلم مهما استطع... ت فظلم العباد شديد الوخم....

٣١- ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس، وتقمعها، وتدسيها، وتحقرها، حتى تكون أصغر كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بمعصية الله، وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]....

٣٢- ومن عقوباتها: أن العاصي دائما في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ...

وكما أن الشاة التي لا حافظ لها -وهي بين الذئاب- سريعة العطب؛ فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم وهي أبعد من الراعي.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات[١]....

---

١ قال ابن الجوزي رحمه الله: "وحكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد. قال: أجاهده، قال: فإن عاد قال: أجاهده. قال: هذا

٣٣- ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلْقِه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعُهم له، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه؛ فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش؛ خامل الذكر، ساقط القدر، زري الحال، لا حرمة له ولا فرح له ولا سرور ...

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٦].

يطول، أرأيتَ إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع، قال: أكابده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك.

قال الشيخ رحمه الله: واعلم أن مَثَل إبليس مع المتقي والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام فمر به كلب فقال له: أخسأ؛ فذهب، فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أخسأه لم يبرح، فالأول مثل المتقي يمر به الشيطان فيكفيه في طرده الذكر، والثاني مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه. نعوذ بالله من الشيطان". تلبيس إبليس (ص٤٨).

أي: خصصناهم بخصيصة؛ وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

فأَتْبَاعُ الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم؛ فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

٣٤- ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار! فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضي ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، وقاطع الرحم، والغادر وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق و ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] الذي يوجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان.....

٣٥- ومن عقوباتها: أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقلَين أحدهما مطيع لله والآخر عاص؛ إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرينه، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب.

٣٦- ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة؛ أنها تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه....

وليست سعة الرزق بكثرته! ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام! ولكن سعة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الرزق وطول العمر بالبركة فيه....

ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم أو متعلم»[١]،.....

٣٧- [المعاصي تضعف العبد أمام نفسه]

ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعْلَمُ الناسِ أعرفُهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قويَ على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه، وكفَّها عما يضره ...

---

١ صحيح. الترمذي (٢٣٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. الصحيحة (٢٧٩٧).

وقوله «إن الدنيا ملعونة»: أي: مبغوضة من الله تعالى لكونها مبعدة عن الله، «ملعون ما فيها»: أي: مما يشغل عن الله. ينظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٥٠٤).

فإذا وقع مكروه واحتاج إلى التخلص منه؛ خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولَزِمَ قِرابَه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه؛ فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به.

كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئًا، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقْدِم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملِكِها قوةٌ يدفع بها؛ فما الظن بها؟...

والمقصود أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ... بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاه ساه غافل! ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه.

وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفع عنه الأعداء، فأهمل جنده، وضيعهم، وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة!

هذا؛ وثَمَّ أمرٌ أخوفُ من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاه رخ، غلبتُك! ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال: يا ربَّ قائلةٍ يوما وقد تعبتْ... أين الطريق إلى حمام منجاب[١]؟ ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تننتا! حتى قضى

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما ينفعني ما تقول ولم أدَعْ معصيةً إلا ركبتُها؟! ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت لله صلاة؟! ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول! وقضى.

---

١ ستأتي قصتها فيما بعد.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردتُ أن أقولها؛ لساني يمسك عنها!

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلس لله! حتى قضى.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر -وهو عنده- وجعلوا يلقنونه: لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترًى جيد، هذه كذا! حتى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرا؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبَه عن ذكر الله تعالى، وعطَّل لسانَه عن ذكره وجوارحَه عن طاعته؛ فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته؟! فإن ذلك آخرُ العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال؛ فمن ترى يسلم على ذلك؟!

فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ

اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٣٨- ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسه، وإذا نسي نفسَه أهملها وأفسدها وأهلكها، فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل: نعم ينسى نفسَه أعظمَ نسيان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد: إهماله، وتركه، وتخليه عنه، وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم.

وأما إنساؤه نفسه؛ فهو: إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها، وإصلاحها، وما تكمل به، ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله، ولا يجعله على

ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه؛ فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضا؛ فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها؛ فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضا؛ فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

٣٩- ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة.

فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببا وآفة، سببا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

٤٠- [المعصية تُباعد بين العبد والملَك]

ومن عقوباتها: أنها تُباعد عن العبد وليَّه وأنفعَ الخلق له وأنصحهم له، ومَن سعادته في قربه منه، وهو الملَك الموكل به، وتدني منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم

ضررا له -وهو الشيطان-.

فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة....

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وإذا تولاه الملَك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرُّهم، فثبته وعلَّمَه، وقوَّى جنانَه، وأيده الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، فيقول الملَك عند الموت: لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحدٌ أنفعَ للعبد من صحبة الملَك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويَعِدُه بالخير ويبشره به، ويحثه على

التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعا وموقوفا: «إن للملك بقلب ابن آدم لمةً، وللشيطان لمةً، فلَمَّةُ الملَك: إيعادٌ بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق»[١].

وإذا اشتد قرب الملَك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بَعُدَ منه وقَرُبَ الشيطان؛ تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يُرى الرجلُ يتكلم على لسانه الملك! والرجل يتكلم على لسانه الشيطان!... حتى إن الملَك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبَّه، كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسبُّ الآخرَ وهو ساكتٌ، فتكلم بكلمة يردُّ بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لما رددتُ عليه بعضَ قوله قمتَ! فقال: «كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان؛ فلم أكن لأجلس»[٢].

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمن الملك على دعائه، وقال: «ولك

---

١ صحيح. الترمذي (٢٩٨٨) عن ابن مسعود مرفوعا. صحيح موارد الظمآن (٣٨)، وكان الشيخ الألباني قد ضعفه أولًا، ثم صححه بعد؛ رحمه الله تعالى.

٢ صحيح. أبو داود (٤٨٩٦). الصحيحة (٢٣٧٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بمثل»[١].

وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أَمَّنَتِ الملائكة على دعائه.

وإذا أذنب العبد الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله[٢].

وإذا نام العبد على وضوء بات في شعاره ملَك.

فمَلك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه، ويُعَلِّمُه ويثبته ويشجعه؛ فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده؛ فإنه ضيفه وجاره!

٤١- [العقوبات الشرعية على المعاصي]

فإن لم تردعك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيرا في قلبك! فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم.

---

١ صحيح مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

كما قطع اليد في سرقة ثلاثة دراهم!

وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس!

وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن! أو قطرة خمر يدخلها جوفه!

وقتل بالحجارة أشنع قِتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام! وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمةُ الإحصان بمائة جلدة، وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة!

وفرَّق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم منه! أو ترك الصلاة المفروضة! أو تكلم بكلمة كفر!

وأمر بقتل مَن وَطِئ ذكرا مثله! وقتل المفعول به!

وأمر بقتل من أتى بهيمة وقتل البهيمة معه!

وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة!

وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها....

- [لطيفة في العذاب الروحي لمن أحب شيئا غير الله، والسعادة في القرب من الله]

كل من أحب شيئا غير الله عُذِّبَ به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.... ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربا وفرحا وأنسا بربه، واشتياقا إليه، وارتياحا بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه.

ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا! خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها!

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغُبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى أنه قد غَبن! إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المُقَوِّمِين، فيا عجبا مِن بضاعة

معك: اللهُ مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمِن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ، وقد بعتها بغاية الهوان!!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- [موعظة لطيفة تستدعي الحياء من الله]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمتُ أباكم، ورفعت قدْره، وفضلته على غيره، فأمرتُ ملائكتي كلَّهم أن يسجدوا له -تكريما له وتشريفا-، فأطاعوني، وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته! ومن والى أعداء المِلك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له؛ فهذا محال! هذا لو لم يكن عدو المِلك عدوا لكم؛ فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟! فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه عدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: {وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ}، كما نبه على قبحها بقوله تعالى:

{فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [سورة الكهف: ٥٠]، فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا؛ كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلا.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب وهو: أني عاديتُ إبليسَ إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لأجلكم؛ ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة!!

- [مسألة: في رفع درجة التائب عن الذنب]

اختلف الناس؛ هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها؟ بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجودَه كعدمه فكأنه لم يكن، أو لا يعود؟ بناء على أن للتوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة، وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها!

قالوا: وتقرير ذلك: أنه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر وارتفاع بجملة أعماله السالفة، بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل إلى أعلى، وبينهما بون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك رجلان يرتقيان في سلمين لا نهاية لهما -وهما سواء-، فنزل أحدهما إلى أسفل -ولو درجة واحدة- ثم استأنف الصعود؛ فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكما مقبولا فقال: التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشية الله، فقد تقوى هذه الأمور حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة؛ فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه، وعرَّفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ مولاه له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه من أن يشمخ بها أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيرا من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحيا خائفا منه وجِلًا، محتقرا لطاعته، مستعظما لمعصيته، عرف نفسه بالنقص والذم، وربَّه منفردا بالكمال والحمد والوفاء.

كما قيل: استأثر الله بالوفاء وبالحم... د وولى الملامة الرجلا

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها، وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها، ورأى مولاه قد أحسن إليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه....

ولولا أن رحمتَه سبقت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته؛ وإلا لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السماوات والأرض من معاصي العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: " الحليم، والغفور " كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السماوات والأرض؟....

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية، فإن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق؛ فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه.

- [كمال الإنسان في العلم والعمل]

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام:

١- فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

٢- القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحُمَّى الأرواح وسقم القلوب، يضيقون الديار ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

٣- القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به؛ لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب

إلى الله منه.

٤- القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحما والدواء النافع سما.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر -الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين- على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

- [لطيفة: شيطان مصروع!!]

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله، وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يَفْرَق من هذا القلب أشدَّ من فَرَقِ الذئب من الأسد؛ حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسي، وبه نظرة من الإنس!

- [تزيين الباطل، وتقبيح الحق!]

وإذا شئت أن تعرف ذلك؛ فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يُخرجون الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس! ونحو ذلك.

ويُخرجون اتِّباعَ السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم والتشبيه والتكييف!

ويسمون علوَّ الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزا!

ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا، وقوله: "من يسألني فأعطيه" تحركا وانتقالا!

ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح!

ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادثَ، وما يقوم من صفاته أعراضا! ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بهذه الأمور!

ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر؛ أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور! ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم! وأكثرُ الناس ضعفاءُ العقول؛ يَقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر!

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] فسماه زخرفا وهو باطل، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به.

- [حديث جليل في الحذر من فتنة الشيطان]

«إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة؟»[١].

فكهذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ أوما سمعتم ما ألقيتُ على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، قال: هي أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم!

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها.

ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين بني آدم، وزينوها في

---

١ صحيح سنن النسائي (٣١٣٤) من حديث سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه مرفوعًا.

قلوبهم، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

- [قاعدة لطيفة في مقدار العقوبات الشرعية]

فما كان الوازع عنه طبيعيا؛ وما ليس في الطباع داعٍ إليه: اكتُفي بالتحريم مع التعزير، ولم يرتب عليه حدا، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة.

وما كان في الطباع داعٍ إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته، وبقدر داعي الطبع إليه.

ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعي؛ كانت عقوبته العظمى من أشنع القِتلات وأعظمها، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب.

ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمران[١]؛ كان حدُّه القتلَ بكل حال،

ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذلك؛ قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر به الجناية؛ كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به؛ إذ

---

١ لا يظهر –والله أعلم– أن فيه الأمرين، فإن داعيَ اللواط مردودٌ بالفطرة السليمة، كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، ولكن يمكن التعويل على العلة الثانية وهي شدة المفسدة.

مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها! فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟

قيل: لوجوه:

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية؛ إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك.

الثاني: أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة؛ بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنه إذا قطع يده أبقى له يدا أخرى تُعوِّض عنها؛ بخلاف الفرج.

الرابع: أن لذة الزنا عمت جميع البدن؛ فكان الأحسنُ أن تعمَّ العقوبة جميع البدن، وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل، وأقومها بالمصلحة.

- [العلاقة بين عقوبات الذنوب: الشرعية والقدرية]

وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية، وقدرية، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبة القدرية وخففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين العقوبتين؛ إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجِب [سبب] الذنب، ولم يكف في زوال دائه.

وإذا عُطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية، وربما كانت أشد من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعمُّ والشرعية تخصُّ؛ فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها، وأما العقوبة القدرية؛ فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر فتركوا إنكاره أوشك أن يعمهم الله بعقابه.

- [أنواع العقوبات الشرعية، وأعظمها في بابها]

تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع: القتل والقطع والجلد، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه وهو الزنا واللواط؛ فإن هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا، واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال: «يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت: ثم أي؟ قال أن تزاني بحليلة جارك فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] »[1].

والنبي ﷺ ذَكَرَ من كل نوع أعلاه ليطابق جوابُه سؤالَ السائل، فإنه سأله عن أعظم الذنب؛ فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها، وما هو أعظم كل نوع.

---

١ رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله ندا.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه.

وأعظم أنواع الزنا: أن يزني بحليلة جاره؛ فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق.

- [مثال على عظم الذنب في بابه]

١- فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثما وعقوبة من التي لا زوج لها، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج، وإفساد فراشه وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه؛ فهو أعظم إثما وجرما من الزنا بغير ذات البعل، فالزنا بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار.

٢- فإن كان زوجها جارا له انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وآذى جاره بأعلى أنواع الأذى، وذلك من أعظم البوائق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»[١]؛ ولا بائقة أعظم من الزنا بامرأة الجار.

٣- فإن كان الجار أخا له أو قريبا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعةُ الرحم؛ فيتضاعف الإثم له.

٤- فإن كان الجار غائبا في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم، حتى إن الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال: خذ من حسناته ما شئت!

---

١ البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

والبوائق: جمع بائقة؛ وهي الغائلة والداهية والفتك.

قال النبي ﷺ: (فما ظنكم)[١]؟! أي ما ظنكم أنه يترك له حسنات؟! قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة، حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقا يجب عليه.

٥- فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه انضاف إلى ذلك قطيعةُ رحمها.

٦- فإن اتفق أن يكون الزاني محصنا؛ كان الإثمُ أعظمَ.

٧- فإن كان شيخا؛ كان أعظم إثمًا، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

٨- فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله - كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة-؛ تضاعف الإثم.

وعلى هذا؛ فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة، والله المستعان.

---

١ صحيح النسائي (٢٩٩٠) من حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا.

- **وقاية السيئات نوعان.**

أحدهما: وقاية فعلِها بالتوفيق؛ فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة؛ فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية [﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ [غافر: ٩]] سؤال الأمرين.

- [قد لا تشعر بالعقوبة أصلًا!!]

فسبحان الله!

كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟

وقلب ممسوخ وقلب مخسوف به؟

وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟

ومغرور بستر الله عليه؟

ومستدرج بنعم الله عليه؟

وكل هذه عقوبات وإهانات ويظن الجاهل أنها كرامة!

- [نعيم القلب وشقاؤه]

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ﴾ [طه: ١٢٤].

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات؛ فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم؛ ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة -وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر-، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات!

فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت

به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فضمِن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاءَ في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه

لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا؛ إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة؛ فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[١]، وقال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[٢].

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] مختص بيوم المعاد فقط! بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيبُ من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تبارك وتعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله سبحانه

---

١ صحيح. الترمذي (٣٥١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٢٥٦٢).

٢ رواه البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

- [سلامة القلب]

ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء:

١- من شرك يناقض التوحيد.

٢- وبدعة تخالف السنة.

٣- وشهوة تخالف الأمر.

٤- وغفلة تناقض الذكر.

٥- وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حُجُب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادا لا تنحصر.

[أنواع الذنوب باعتبارات]

- أصلها نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس.

- وكلاهما ينقسم باعتبار محله: إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب.

- وباعتبار متعلقه: إلى حق الله وحق خلقه، وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه؛ لكن سمي حقا للخلق لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم.

- ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: مُلْكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

١- فالذنوب المُلْكية[١] أن يتعاطى ما لا يصح له من صفات الربوبية، كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا شرك بالله تعالى، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته [الرياء]، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره.

---

١ أظنها من المُلْك وليس المَلَك؛ لأنه لا يستقيم المعنى، يعني: المُلْكية.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلْقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب؛ فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه، وجعل له ندا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

٢- وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد والبغي والغش والغل والخداع والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

٣- وأما السبُعية: فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

٤- وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام.

- [الأعمال المكفرة إنما هي بحسب حالها مع صاحبها]

في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[١].

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

---

١ صحيح مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- [أنواع التعطيل]

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها، هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله.

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

- [الرياء منه ما يبطل العمل فقط ومنه ما يأثم عليه]

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا؛ فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر؛ فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- [لطيفة في عظم دعاء غير الله]

وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجدَ يصلي لله فيها؛

فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله؟!

ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١].

١ البخاري (٤٤٤١)، ومسلم (٥٢٩) عن عائشة رضي الله عنه مرفوعًا.

- [من عِظم ضلال الشرك أنه سوء ظن بكمال الله تعالى]

إذا تبين هذا؛ فهاهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءةُ الظن به، فإن المسيءَ به الظنَّ قد ظن به خلافَ كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

قال تعالى عن خليله إبراهيم أنه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

وما ظننتم به حين عبدتم معه غيره؟!

وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟!

فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني

عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يَشركه فيه غيره، والعالِم بتفاصيل الأمور؛ فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده؛ فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته؛ فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم يحتاجون إلى من يُعرفهم أحوالَ الرعية وحوائجهم، ويعينهم إلى قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة؛ فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور عِلْمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني عن كل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء؛ فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح.

يوضح هذا: أن العابد معظِّمٌ لمعبوده، متألهٌ خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه! كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ

مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به منفرد؟! وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي.

فمن زعم ذلك؛ فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا مفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره؛ ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره! وإن سلبهم الذباب شيئا لم يقدر على استنقاذه منه! وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] فما قدر مَن هذا شأنه وعظمته حق

قدره مَن أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

- [جملة من نماذج سوء الظن عند المشركين وعند أهل البدع بعامة]

- وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه لم يرسل إلى خلقه رسولًا، ولا أنزل كتابا! بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه؛ من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى، وخلقهم باطلا وعبثا!

- ولا قَدَرَه حقَّ قدرِه من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره، وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريده!

- أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم؛ فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب؛ فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون! تعالى عن قول أشباه المجوس علوا كبيرا.

- [ويقابل الطائفة السابقة هذه الطائفة] وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد، ولا له عليه قدرة، ولا تأثير له فيه ألبتة! بل هو

نفس فعل الرب جل جلاله؛ فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذي جبر العبد عليه! وجبرُه على الفعل أعظمُ من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا؛ فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير، ولا هو واقع بإرادته، بل ولا هو فعله ألبتة؛ ثم يعاقب عليه عقوبة الأبد! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره.

- وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش، ولا مكان يرغب عن ذكره! بل جعله في كل مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه! ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وتعرج الملائكة والروح إليه، وتنزل من عنده: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، فصانه عن استوائه على سرير المُلْك ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان -بل غيره من الحيوان- أن يكون فيه!

- وما قدر الله حقَّ قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله،

ولا من نفى حقيقة فعله؛ ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به! بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه، وتكليمَه موسى من جانب الطور، ومجيئَه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نَفَوها وزعموا أنهم بنفيها قدروه حق قدره!

- وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدًا، أو جعله سبحانه يَحُلُّ في جميع مخلوقاته، أو جعله عينَ هذا الوجود!

- وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذِكْرَهم، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز! ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا! وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين أنه أرسل ملِكا ظالما؛ فادعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، ومكث زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت، ويقول: قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، ينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماءَ أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول: اللهُ أباح لي ذلك؛ والرب تعالى يظهره ويؤيده، ويعليه، ويعزه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن خالفه،

ويقيم الأدلة على صدقه! ولا يعاديه أحد إلا ظفر به؛ فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، ويُحْدِثُ أدلةَ تصديقه شيئا بعد شيء! ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، تعالى عن قول الجاحدين علوا كبيرا....

- وكذلك لم يقدره حقَّ قدره من قال: إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين، ويدخلهم دار الجحيم! وينعمَ أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين، ويدخلهم دار النعيم، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله! وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧-٢٨].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١-

٢٢].

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

- وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين!

- وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمرَه فعصاه، ونهيَه فارتكبه، وحقَّه فضيعه، وذِكْرَه فأهمله، وغفل قلبُه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته! فلله الفضلةُ من قلبه وقوله وعمله، هواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه، واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، ويستحي من الناس ولا يستحي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل اللهَ عامله بأهون ما عنده وأحقرِه! وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة،

وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدَّمه على الكثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه -إن ساعد القدر- قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقا مثله، فهل قَدَرَ اللهَ حقَّ قدرِه مَن هذا وصْفُه؟!

- [من عبد غير الله؛ فإنما هو يعبد الشيطان]

فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة -بزعمهم- وقعتْ عبادتُهم في نفس الأمر للشياطين، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته، ويوهمه أنه مَلَكٌ، وكذلك عُبَّادُ الشمس والقمر والكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار، فيقع سجودُهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما؛ وإنما عبد الشيطان، فإنه يزعم أنه يعبد مَن أمره بعبادته وعبادة أمه، ورضيها لهم وأمرهم بها، وهذا هو الشيطان الرجيم، لا

عبد الله ورسوله، فنزل هذا كله على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

فما عَبد أحدٌ من بني آدم غيرَ الله -كائنا من كان- إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له، وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي: من إغوائهم وإضلالهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه! بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادةَ إله غيره؛ كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله، وكيف يُظن بالمنفرد

بالربوبية والإلهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به؟

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

- **قال بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية: لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها.**

وقال إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون! لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه؛ وأما المبتدع فضرره على النوع.

وفتنة المبتدع في أصل الدين؛ وفتنة المذنب في الشهوة.

والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه؛ والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله؛ والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة؛ والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه.

- [توبة قاتل النفس]

والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله وحق للمقتول، وحق للولي.

فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولي ندما على ما فعل وخوفا من الله وتوبة نصوحا؛ سقط حق الله بالتوبة، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول؛ يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه؛ فلا يَبطل حقُّ هذا، ولا تَبطل توبةُ هذا.

- [قتل الفرد كقتل الجميع من جهة أصل الذنب، وليس من جهة مقدار العقوبة!]

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة؛ قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقال: معلوم أن إثمَ قاتل مائة أعظمُ عند الله من إثم قاتل نفس واحدة! وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه.

وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار.

وقد قال النبي ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن

صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله»[١]، أي: مع العشاء كما جاء في لفظ آخر، وأصرح من هذا قوله: «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال؛ فكأنما صام الدهر»[٢]، وقوله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فكأنما قرأ ثلث القرآن»[٣].

ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به؛ فيكون قدرهما سواء!

ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي العشاء والفجر جماعة في قيام الليل منفعةٌ غيرَ التعب والنصب!

وما أوتي أحد -بعد الإيمان- أفضلَ من الفهم عن الله ورسوله ﷺ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعا؟

قيل: في وجوه متعددة:

---

١ صحيح مسلم (٦٥٦) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعًا.

٣ صحيح. النسائي في الكبرى (٩٨٦٨) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٦٤٧٣).

أحدها: أن كلا منهما عاصٍ لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره متعرض لعقوبته، وكل منهما قد باء بغضب من الله ولعنته، واستحقاق الخلود في نار جهنم، وإعداده عذابا عظيما، وإنما التفاوت في درجات العذاب، فليس إثم من قتل نبيا أو إماما عادلا أو عالما يأمر الناس بالقسط؛ كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس.

الثاني: أنهما سواء في استحقاق إزهاق النفس.

الثالث: أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام، فإن من قتل نفسا بغير استحقاق؛ بل لمجرد الفساد في الأرض، أو لأخذ ماله؛ فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله؛ فهو معاد للنوع الإنساني.

ومنها: أنه يسمى قاتلا أو فاسقا أو ظالما أو عاصيا بقتله واحدًا، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعا.

ومنها: أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فإذا أتلف القاتل من هذا الجسد عضوًا، فكأنما أتلف سائر الجسد، وآلم جميع أعضائه، فمن آذى مؤمنا واحدا فكأنما آذى جميع المؤمنين.

- [حابس الهرة في النار؛ فكيف بقاتل النفس المؤمنة؟!]

وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا فرآها النبي ﷺ في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها؛ فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم؟!

وفي بعض السنن عنه ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[١].

١ صحيح. الترمذي (١٣٩٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا. صحيح الجامع (٥٠٧٨).

- [المحفوظات الأربع]

ولما كان مبدأ ذلك [الزنى] من قِبل البصر؛ جعل الأمرَ بغضه مقدما على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من البصر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات.

فينبغي للعبد أن يكون بوَّابَ نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبر ما علا تتبيرا.

- [لطيفة: صبرٌ أهون من صبرٍ]

النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسرُ مِن الصبر على أَلَمِ ما بعدَه.

قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت في قلب صاحبها... كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والعبد ما دام ذا طرف يقلبه... في أعين العين موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

- [الأفكار الخمسة]

أعلى الفِكَرِ وأجلُّها وأنفعُها: ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

- أحدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها، وفهمها وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها! بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: أُنزل القرآنُ ليُعمل به؛ فاتخَذوا تلاوتَه عملا!

- الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبارُ بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبِرِّه وجوده، وقد حضَّ الله سبحانه عبادَه على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها، وذم الغافل عن ذلك.

- الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

- الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهذا باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء، ومتى كُسرت عاشتِ النفسُ المطمئنة وانبعثت وصار الحكم لها، فحييَ القلبُ، ودارت كلمته

في مملكته، وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

- الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه، فالعارفُ ابنُ وقته؛ فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدا.

- [عمرك الحقيقي هو ما كان لله]

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبا من حياته، وإن عاش فيه عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة؛ فموت هذا خير له من حياته.

وإذا كان العبد – وهو في الصلاة – ليس له من صلاته إلا ما عقل منها؛ فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

- [غريبة في صعوبة حفظ اللسان]

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك؛ ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه! حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالا؛ ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب! وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم؛ ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول!

وإذا أردت أن تعرف ذلك؛ فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أني لا أغفر لفلان؟! قد غفرت له وأحبطت عملك»[١]! فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده؛ أحبطت هذه الكلمةُ الواحدة عملَه كله...

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من

١ صحيح مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب رضي الله عنه مرفوعًا.

رضوان الله لا يلقي لها بالا؛ يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا؛ يهوي بها في نار جهنم»[١]، وعند مسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[٢]...

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: «توفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك؟ لعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه» قال: حديث حسن[٣]، وفي لفظ: «أن غلاما استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئا لك يا بني الجنة، فقال النبي ﷺ: وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره»[٤]....

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا

---

١ صحيح البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

٢ صحيح مسلم (٢٩٨٨).

٣ صحيح. الترمذي (٢٣١٦). تحقيق الشيخ الألباني رحمه الله لكتاب (رفع الأستار) للصنعاني (ص: ٧٢).

٤ ضعيف. أبو يعلى في مسنده (٧/ ٨٤/ ٤٠١٧). الضعيفة (٦١٠٧).

أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، أو ذكر الله عز وجل»[١]، قال الترمذي: حديث حسن...

وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد!

ولقد رُئي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسُئِل عن حاله، فقال: أنا موقوف على كلمة قلتُها، قلتُ: ما أحوجَ الناسَ إلى غيثٍ! فقيل لي: وما يدريك؟! أنا أعلم بمصلحة عبادي.

١ ضعيف. الترمذي (٢٤١٢) من حديث حبيبة رضي الله عنه مرفوعًا. الضعيفة (١٣٦٦).

- [آفتان في اللسان]

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى! آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثما من الأخرى في وقتها.

فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله، مراءٍ مداهن -إذا لم يخف على نفسه-، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته؛ فهم بين هذين النوعين.

وأهل الوسط -وهم أهل الصراط المستقيم- كَفُّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة -فضلا أن تضره في آخرته-، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال؛ فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

- [شفقة الناس على الزاني العاشق تمنعهم من الحد!]

نهى الله عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة؛ فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة؛ فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره!

وهذا -وإن كان عاما في سائر الحدود- ولكنْ ذُكِرَ في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذِكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنُهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

وسبب هذه الرحمة:

١- أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل.

٢- وفي النفوس أقوى الدواعي إليه.

٣- والمشارك فيه كثير.

٤- وأكثر أسبابه العشقُ، والقلوب مجبولة إلى رحمة العاشق، وكثير من الناس يَعُدُّ

مساعدتَه طاعةً وقُربة -وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه-! ولا يُستنكر هذا الأمر؛ فهو مستقِرٌّ عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيئا كثيرا نُقَّاصُ العقول كالخدام والنساء.

٥- وأيضا؛ فإن هذا ذنب غالبا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه.

٦- وفي النفوس [الناس الراحمين للزاني] شهوة غالبة له فيصور ذلك لها؛ فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد!

وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقا لربه تعالى في أمره ورحمته.

- [أين الطريق إلى حمام منجاب!]

قال: وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلا كان واقفا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقرُّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثرَ الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول:

يا رب قائلة يوما وقد تعبت... كيف الطريق إلى حمام منجاب[1]؟

فبينما هو يوما يقول ذلك؛ إذا بجارية أجابته من طاق:

هلا جعلتَ سريعا إذ ظفرتَ بها... حِرزا على الدار أو قفلا على الباب!

---

١ حمام منجاب: في العراق، في بغداد أو الكوفة.

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل على ذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا!

[يريد ابن القيم أنه لم يوفق لكلمة التوحيد قبل الممات].

- [حسن الخاتمة لمن صَلُحَ ظاهره وباطنه]

واعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله تعالى منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلِم به -ولله الحمد-، وإنما تكون لمن له فساد في العقد، أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلمه قبل الإنابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يوما المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: قد سبيتِ لُبي، وأخذتِ بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، وقال: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلتَ أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في

أثناء ذلك اليوم، رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها وفاته دينُه!

قال: ويروى أن رجلا عشق شخصًا، فاشتد كلفه به، وتمكن حبُّه من قلبه، حتى وقع أَلَمٌ به ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخصُ عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد سروره وانجلى غمه، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضُرب له، فبينا هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغبتُ إليه وكلمتُه، فقال: إنه ذكرني وصرَّح بي، ولا أدخل مداخلَ الريبةِ ولا أُعَرِّضُ نفسي لمواقع التهم، فعاودتُه فأبى وانصرف! فلما سمع البائسُ أُسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت عليه علائمُ، فجعل يقول في تلك الحال:

أَسْلَمُ؛ يا راحةَ العليل... ويا شفا المُدْنَف[1] النحيل

رضاك أشهى إلى فؤادي... من رحمة الخالق الجليل

---

١ المتهالك في الحب.

فقلتُ له: يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمتُ عنه، فما جاوزتُ باب داره حتى سمعتُ صيحة الموت، فعياذا بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة.

- [اتفاق الصحابة على قتل اللوطي، واختلفوا في الصفة]

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف منهم فيه رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن الناس أن ذلك اختلافا منهم في قتله؛ فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع!

- [جملة من المصالح الحاصلة بنكاح الرجل للمرأة خلافا للواط -عياذًا بالله-]

ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة! لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من:

١- قضاء الوطر ولذة الاستمتاع،

٢- وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها.

٣- وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات.

٤- وتحصين المرأة وقضاء وطرها.

٥- وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب.

٦- وقيام الرجال على النساء.

٧- وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن: كالأنبياء والأولياء والمؤمنين.

٨- ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياءَ بأمته.

إلى غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كلَّه، وتربو عليه بما لا يمكن حصرُ فسادِه، ولا يعلم تفصيله إلا الله.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- [قصة اللوطية مع نبيهم لوط ﷺ]

وتأمل خبث اللوطية وفرْط تمردهم على الله؛ حيث جاءوا نبيَّهم لوطا لما سمعوا بأنه قد طرقه أضيافٌ هم من أحسن البشر صورًا، فأقبل اللوطية إليهم يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨].

ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفا على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] .

فنفث نبي الله منه نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فنفَّسَ له رسلُ الله عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم، وهون عليك، فقالوا: ﴿يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

فاستبطأ نبي الله موعدَ هلاكِهم، وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل إلى عبده ورسوله جبرائيل؛ بأن اقلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين، ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٧].

أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقُلبت تلك اللذة آلامًا، فأصبحوا بها يعذبون.

- [علاج العشق المحرم]

الكلام في دواء داءِ تعلقِ القلب بالمحبة الهوائية من طريقين:

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها [وهذه ستذكر هنا].

والثاني: قلعها بعد نزوله [وهذه ستذكر بعدُ في فقرة مستقلة].

وكلاهما يسير على من يسره الله عليه، ومتعذر على من لم يعنه الله؛ فإن أزمة الأمور بيديه.

فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء، فأمران:

١- غض البصر -كما تقدم-؛ فإن النظرةَ سهمٌ مسموم من سهام إبليس، ومن أطلق لحظاتِه دامتْ حسراتُه...

وكان [شاه بن] شجاع الكرماني[١] يقول: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال: لم تخطئ له فراسة وكان شجاعٌ لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئا

---

١ "شاه بن شجاع الكرماني، يكنى أبا الفوارس، كان من أبناء الملوك؛ فتزهد رضي الله عنه". صفة الصفوة (٢/ ٢٧٤)، من القرن الثالث الهجري.

عوضه الله خيرا منه، فإذا غض بصره عن محارم الله؛ عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان، والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة....

٢- اشتغال القلب بما يصده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضرُّ عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب؛ لم يجد بدا من عشق الصور.

وشرح هذا: أن النفس لا تترك محبوبا إلا لمحبوب أعلى منه، أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب.

وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

- أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصة العقل، ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه.

- الثاني: قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك، فكثيرا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبى له ضعفُ نفسه وهمته وعزيمته على أشياء لا تنفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتفع به غيره، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين، فقال تعالى - وبقوله يهتدي المهتدون منهم-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وهذا هو الذي يُنتفع بعلمه ويَنتفع به الناس، وضده لا يَنتفع به غيره، ومن الناس من يَنتفع بعلمه في نفسه ولا يُنتفع به غيره، فالأول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره، والثاني قد طفئ نوره؛ فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته، والثالث يمشي في نوره وحده.

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا! بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه، فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى -الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها- صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة إلى محبته، أو قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها، والمحبة الصادقة

تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده لا يحظيه بقربه، ويعده كاذبا في دعوى محبته -مع أنه ليس أهلا لصرف كل قوة المحبة إليه-؛ فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- [تنبيه: العشق لا يوصف به الله]

ثم العشق -وهو إفراط المحبة-؛ ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا يطلق في حقه.

- [الحياة الطيبة هي الحياة بمحبة الله والشوق والأنس به]

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، ومن طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح! بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة، وقد ضَمِن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحدا في مرضاة الله ولم يتشعب قلبه؟! بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره -التي كانت متقسمة؛ بكل واد منها شعبة- على الله، فصار ذِكرُه بمحبوبه الأعلى وحبُّه والشوقُ إلى لقائه، والأنسُ بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه.

- [محبة النَّبِيّ ﷺ هي من محبة الله تعالى، وأنواعها]

والمقصود: أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله؛ فإنها من لوازم العبودية وموجباتها، فإن محبة الرسول -بل تقديمَه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء- لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»[١].

وفي لفظ في الصحيحين: «لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار».

وفي الحديث الذي في السنن: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[٢].

وفي حديث آخر: «ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا

١ البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

٢ صحيح. أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعا. صحيح الجامع (٥٩٦٥).

لصاحبه»[١].

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله تعالى وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلُها كذلك.

وهاهنا أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

- أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه؛ فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

- الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

- الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

- الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئا مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه؛ فقد اتخذه ندا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

---

١ صحيح الأدب المفرد (٤٢٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه: وهي المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبته.

كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

- [الخلة أعلى من المحبة]

وأما ما يظنه بعض الغالطين -أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمدا حبيب الله-! فمن جهله، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضا؛ فإن الله سبحانه: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

والشاب التائب حبيب الله، وخلته خاصة بالخليلين، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ.

- [يؤجر على الترك إذا عَرَضَ سببُه]

وأما عدم الفعل؛ فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه، وهذا متعلق الأمر والنهي وهو الذي يسمى الكف، وهو متعلق الثواب والعقاب، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك؛ وهل هو أمر وجودي أو عدمي؟

والتحقيق أنه قسمان: فالترك المضاف إلى عدم السببِ المقتضي: عدميٌّ، والمضافُ إلى السبب المانع من الفعل: وجوديٌّ.

- [طريق تحصيل السعادة]

قال بعض العلماء: فكرتُ فيما يسعى فيه العقلاء؛ فرأيتُ سعيَهم كلَّهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب، فقلت: هذا المطلوبُ مطلوبُ العقلاء، ولكنَّ الطرقَ كلها غيرُ موصلة إليه! بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقا موصلة إليه إلا الإقبال على الله وحده، ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء.

فإن سالك هذا الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كلُّ شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذه الطرق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته، وبالله التوفيق.

- [فصل أقسام المحبوب]

والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، والمحبوب لغيره لا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيءٌ يُحب لذاته إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يُحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه؛ فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه، وهذا موضع يجب الاعتناء به؛ فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتي لا تنفع بل قد تضر.

- [تابع الشيء له حكم نفس الشيء]

توابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه، فالمحبة النافعة المحمودة -التي هي عنوان سعادة العبد- وتوابعها كلها نافعة له، فحكمها حكم متبوعها، فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة.

والمحبة الضارة المذمومة؛ توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها، مبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها في خسارة وبعد.

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

فأخبر الله سبحانه في الآية الأولى: أن المتولدَ عن طاعتهم وأفعالهم يكتب به عمل صالح، وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها،

والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه؛ فكُتب لهم به عمل صالح، والثاني نفسُ أعمالهم فكُتب لهم.

- [من الفقه العالي معرفة العلاقة بين الدليل ومدلوله]

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦-٨٧].

أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين مقهورين ولا مجزيين؟!

وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزما لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليلا على لازمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم -كما سيميتهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم-، وإما أن لا يقروا برب هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه كفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد! فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم! وهذا خطاب للحاضرين

وهم عند المحتضر - وهم يعاينون موته-، أي: فهلا تردون الروح إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر تمضي عليكم أحكامه، وتنفذ أوامره! وهذه غاية التعجيز لهم، إذ بَيَّن عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم، وجريانها عليهم.

- [دواء العشق]

ودواء هذا الداء القتَّال:

١- أن يعرف أن ما ابتُلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد؛ إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله تعالى؛ فعليه أن يعرف توحيد ربِّه وسنته أولا.

٢- ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه.

٣- ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

- [أضرار العشق]

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

- أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذِكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

- الثاني: عذاب قلبه به؛ فإن من أحب شيئا غير الله عُذب به ولا بد ... والعشق وإن استلذ به صاحبُه؛ فهو أعظم من عذاب القلب.

- الثالث: أن قلبَه أسيرُ قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى، والطفل يلهو ويلعب!

- الرابع: أنه يَشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيءٌ أضيعَ لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور.

أما مصالح الدين؛ فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثا وتشتيتا له، وأما مصالح الدنيا؛ فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه؛ فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

- الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس

الحطب، وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بعُدَ من الله، فأبعد القلوب من الله قلوبُ عشاق الصور، وإذا بعُدَ القلب من الله طرقتْه الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، واستولى عليه ولم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده، وبعُدَ منه وليه، ومن لا سعادة له ولا فرح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

- السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه؛ أفسد الذهن، وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عُدِمَ عقلُه التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره...

- السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها -إما إفسادا معنويا أو صوريا-، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرى القبيح حسنا منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعا: «حبك

الشيء يعمي ويصم»[١] فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه؛ فلا ترى العين ذلك! ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه؛ فلا تسمع الأذن ذلك! والرغبات تستر العيوب! فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذ زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوةٌ على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به.

[فائدة جميلة:] والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا ولد في الإسلام من لا يعرف الجاهلية!

وأما فساد الحواس ظاهرا؛ فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف في أخبار من قتلهم العشق.

وقد رُفع إلى ابن عباس -وهو بعرفة- شابٌ قد انتحل حتى عاد جلدا على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة

---

١ ضعيف الجامع (٢٦٨٨).

يومه.

- الثامن: أن العشق -كما تقدم- هو الإفراط في المحبة بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه ...

والعشق مباديه سهلة حلوة، وأوسطه همٌّ وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتْل - إن لم تتداركه عناية من الله تعالى-.

- [مقامات العاشق أو واجب العاشق في كل مقام]

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه: قالوا: يجب عليه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاء-؛ فعليه كتمانه ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يُشَبِّبْ بمحبوبه ويهتكه بين الناس! فيجمع بين الشرك والظلم، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله، فإنه يعرض المعشوق -بهتكه في عشقه- إلى وقوع الناس فيه، وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة، وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو بفلانة؛ كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون!...

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها حتى إذا تمكن حبُّها من قلبه؛ بذلت له نفسها إن دخل في دينها، فهنالك: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].... والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه

يعرض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه؛ بأن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهو يسومه سوء العذاب، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه، ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره! فكم للعشق من قتيل من الجانبين، وكم أزال من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة، وشتت من شمل، وكم أفسد من أهلٍ للرجل وولده، فإن المرأة إذا رأت بعلَها عاشقا لغيرها اتخذت هي معشوقا لنفسها، فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة! فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا!

فعلى العاقل أن لا يُحْكِم على نفسه عشقَ الصور، لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها؛ فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرر بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها، فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه!

- [الاسترسال في العشق والتدرج به]

فإن أول أسباب العشق:

١- الاستحسان -سواء تولد عن نظر أو سماع-.

٢- فإن لم يقارنه طمعٌ في الوصال وقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق.

٣- فإن اقترن به الطمعُ فصَرَفَه عن فكره ولم يُشْغِلْ قلبَه به؛ لم يحدث له ذلك.

٤- فإن أطال مع ذلك الفكرَ في محاسن المعشوق وقارنه خوفُ ما هو أكبر عنده من لذة وصاله؛ إما خوف ديني كدخول النار، وغضب الجبار، واحتقاب الأوزار، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر؛ لم يحدث له ذلك العشق.

فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه، أو ماله، أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس، وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعَه.

وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحبُّ إليه وأنفع له من ذلك المعشوق، وقدَّم محبتَه على محبة ذلك المعشوق؛ اندفع عنه العشقُ.

٥- فإن انتفى ذلك كله، وغلبت محبة المعشوق لذلك؛ انجذب إليه القلب بالكلية، ومالت إليه النفس كل الميل.

- [الموالاة لله غير الموالاة مع الله]

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

فالولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده المؤمن بحسب محبته له، ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء، بخلاف من والى أولياءه؛ فإنه لم يتخذهم من دونه! بل موالاته لهم من تمام موالاته.

- [كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة]

وهذا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل، فلذة العبد -إذا اشتد ظمؤه- بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي [أكمل]، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

- [أنواع لذات الدنيا]

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

١- فأعظمها وأكملها: ما أوصل لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله، من أكله، وشربه، ولباسه، ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

٢- النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة، وتعقب آلاما أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما؛ يستدرجه به إلى هلاكه، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

قال بعض السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال في حقهم: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]....

٣- النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار -وإن منعت كمالها-، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولا بد أن تشتغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته؛ فإنهن من الحق»[١].

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل.

١ أحمد (١٧٣٠٠) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعًا.

- [محبة سماع القرآن من علامة محبة الله]

وكذلك محبة كلام الله؛ فإنه من علامة حب الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله؛ فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوبا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه كما قيل:

إن كنتَ تزعم حبي فلم هجرت كتابي؟... أما تأملتَ ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرتْ قلوبنا لما شبعتْ من كلام الله!

وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟

وقال النبي ﷺ يوما لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اقرأ عليّ، فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فاستفتح سورة النساء، حتى إذا بلغ قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسبك الآن، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء»[١].

---

١ صحيح البخاري (٥٠٥٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وكان الصحابة إذا اجتمعوا -وفيهم أبو موسى- يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون.

فلِمحبي القرآن -من الوجد، والذوق، واللذة، والحلاوة، والسرور- أضعافُ ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيتَ الرجل - ذوقه ووجده وطربه وتشوقه- إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وسماع الألحان دون سماع القرآن، كما قيل:

تُقرأ عليك الختمةُ وأنت جامد كالحجر ... وبيت من الشعر ينشد تميل كالسكران!

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان! والمغرور يعتقد أنه على شيء.

ففي محبة الله وكلام رسوله ﷺ أضعافُ أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حبَّ على الحقيقة أنفعُ منه، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسق المحب إليه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- [دواعي المحبة]

والمحبة لها داعيان: الجمال، والجلال[١] والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

١ قلت: والإحسان، إلَّا إن صح إدراجها في الجمال أو الجلال.

- [مقولة وشبهة والجوابُ]

[قالوا:]ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام في العشق العفيف من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام....

وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال: سبحان مقلب القلوب! وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما همَّ بطلاقها، قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، فلما طلقها؛ زوجها الله سبحانه من رسوله ﷺ من فوق سبع سماوات، فكان هو وليها وولي تزويجها من رسوله ﷺ، وعقد نكاحها من فوق عرشه، وأنزل على رسوله ﷺ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهذا داود نبي الله عليه السلام، لما كان تحته تسع وتسعون امرأة، ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمل بها المائة....

فالجواب -وبالله التوفيق-:

إن الكلام في هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز، والنافع والضار، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار، ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، وإنما يبين حكمه، وينكشف أمره بذكر متعلقه، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم، ونحن نذكر النافع من الحب والضار، والجائز والحرام....

وهذا كما أرشد المتحابَين إلى النكاح، كما في سنن ابن ماجه مرفوعا: «لم ير للمتحابين مثل النكاح»[١].

فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواء شرعًا، وقد تداوى به داود عليه السلام ولم يرتكب نبيُّ الله محرما! وإنما تزوج المرأةَ وضمَّها إلى نسائه لمحبته لها، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته، ولا يليق بنا المزيد على هذا.

وأما قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير رسول الله ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها لا بد، فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس: إن

---

١ صحيح. ابن ماجه (١٨٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا. صحيح الجامع (٥٢٠٠).

رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه! فإنه كان قد تبنى زيدا قبل النبوة، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد، وانقضت عدتها منه؛ أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينبُ إن رسول الله ﷺ يخطبك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسول الله ﷺ بنفسه، وعقد النكاح له فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك، وتقول: أنتن زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات! فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب.

ولا ريب أن النبي ﷺ كان قد حُبِّبَ إليه النساءُ، كما في الصحيح عن أنس عنه ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] هذا لفظ الحديث، لا ما يرويه بعضهم: «حبب إلي من دنياكم ثلاث» زاد الإمام أحمد في

---

١ صحيح. النسائي (٣٩٣٩) عن أنس مرفوعا رضي الله عنه. صحيح الجامع (٣١٢٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كتاب الزهد في هذا الحديث: «أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن»[١]! وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا: ما همُّه إلا النكاح! فرد الله سبحانه عن رسوله ﷺ ونافح عنه، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر وتسرى بها.

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة.

«وسئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه، فقال: عائشة"[٢] رضي الله عنها، وقال عن خديجة: "إني رزقتُ حبَّها»[٣]، فمحبة النساء من كمال الإنسان، قال ابن عباس:

---

١ فيه كلام من جهة عزوه، ومن جهة إسناده.

٢ صحيح ابن حبان (٤٥٢٣) مع التعليقات الحسان.

٣ صحيح مسلم (٢٤٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنه مرفوعًا.

خير هذه الأمة أكثرها نساء[١]....

وقد شفع النبي ﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته[٢] بأن تتزوج به فأبتْ، وذلك في قصة مغيث وبريرة «لما رآه النبي ﷺ يمشي خلفها ودموعه تجري على خديه، فقال لها رسول الله ﷺ: لو راجعتيه؟ فقالت: أتأمرني يا رسول الله، قال: لا، إنما أشفع، فقالت: لا حاجة لي به، فقال لعمه: يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغضها له»[٣]! ولم ينكر عليه حبها، وإن كانت قد بانت منه.

وكان النبي ﷺ يساوي بين نسائه في القسْم ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك»[٤] يعني في الحب، وقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، يعني في الحب والجماع.

---

١ صحيح البخاري (٤٧٨٢) موقوفًا.

٢ ولكن هذا العاشق كان زوجا في الأصل! ولكن لما أُعتقت بريرة وصارت حرة وبقي زوجها عبدًا؛ انتفتِ الكفاءة في النكاح؛ فصار لها خيار الفسخ، واختارت الفسخ.

كما في صحيح البخاري (٤٩٧٥) عن عائشة رضي الله عنها (كان في بريرة ثلاث سنن: إحدى السنن أنها أعتقت؛ فخيرت في زوجها).

٣ صحيح البخاري (٤٩٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

٤ ضعيف أبي داود الأم (٣٧٠).

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان....

فعشق النساء ثلاثة أقسام[١]:

١- قسم هو قربة وطاعة، وهو عشق امرأته وجاريته، وهذا العشق نافع؛ فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح، وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله، ولهذا يُحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس.

٢- وعشق هو مقت عند الله وبُعد من رحمته، وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه، وهو عشق المردان، فما ابتلي به إلا من سقط من عين الله، وطُرد عن بابه، وأُبعد قلبه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله، كما قال بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله؛ ابتلاه بمحبة المردان، وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت، فما أُتوا إلا من هذا العشق، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ودواء هذا الداء: الاستعانة بمقلب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره،

---

١ يريد الشيخ أنه قسمان وألحق به ثالثا هو ليس في النساء!

والتعويض بحبه وقربه، والتفكر في الألم الذي يعقبه هذا العشق، واللذة التي تفوته به، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب، وحصول أعظم مكروه، فإذا أقدمتْ نفسُه على هذا وآثرته؛ فليكبر على نفسه تكبير الجنازة! وليعلم أن البلاء قد أحاط به.

٣- والقسم الثالث: العشق المباح، وهو الواقع من غير قصد، كعشق من وُصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد فتعلق قلبُه بها، ولم يحدث له ذلك العشق معصية، فهذا لا يُملك ولا يُعاقب، والأنفعُ له مدافعتُه، والاشتغال بما هو أنفع له منه، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى، فيثيبه الله على ذلك، ويعوضه على صبره لله وعفته وتركه طاعة هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده.

- [الكلام على حديث «مَن عشق فعفَّ ثم مات؛ مات شهيدا»]

وأما حديث: " «من عشق فعف» " فهذا يرويه سويد بن سعيد، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه١....

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، ولا صححه ولا حسنه أحدٌ يُعوَّل في علم الحديث عليه ويرجع في التصحيح إليه، ولا مَن عادته التسامح والتساهل؛ فإنه لم يَصفُ نفسُه له، ويكفي أن ابن طاهر -الذي يتساهل في أحاديث التصوف، ويروي منها الغث والسمين- قد أنكره وشهد ببطلانه!

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه، وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه: أنه سئل عن الميت عشقًا، فقال: "قتيلُ الهوى لا عقل له ولا قود"٢، ورُفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ، فقال: ما شأنه؟ قالوا: العشق، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق وقد تقدم، فهذا نفس ما روي عنه ذلك.

ومما يوضح ذلك «أن النبي ﷺ عَدَّ الشهداء -في الصحيح-؛ فذكر المقتول في

---

١ موضوع. تاريخ بغداد (١٤/ ٥٠١) للخطيب البغدادي. ضعيف الجامع (٥٦٩٧).

٢ لم أعثر عليه!

الجهاد، والمبطون، والحرق، والنفساء يقتلها ولدها، والغرق، وصاحب ذات الجنب» ولم يذكر منهم من يقتله العشق!

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله، ويعف لله، ويكتم لله، لكن العاشق إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على معشوقه، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه؛ هذا أحق من دخل تحت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وتحت قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فنسأل الله العظيم، رب العرش الكريم؛ أن يجعلنا ممن آثر حبَّه على هواه، وابتغى بذلك قربَه ورضاه.

[قال مختصرُه -العبد الفقير أبو عبد الله؛ خلدون بن محمود بن نغوي آل حقوي-

:

تم بحمده تعالى بتاريخ ١٦/ ١/ ١٤٤٨ هـ.

ونسأل الله تعالى المزيد مِن التوفيق والسداد؛ إنَّه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين].